مفهوم التأثر والتأثير:

التأثر والتأثير عاملان يسهمان في رقي الآداب وتطورها وهذان العاملان)التأثر والتأثير) هما من خصوصية الأشياء الوجودية، فلا حياة بلا تأثر ولا وجود بلا تأثير وإن التجارب الإبداعية للشعوب عبر تاريخها الطويل تثبت أن نهضاتها الفكرية إنما كانت نتيجة حتمية فرضتها عملية التأثر بالآخر فكل عملية تأثر وتأثير لا بد أن تحقق نهضة فكرية لتحقق المزيد من التقدم والتطور اللذين يحتاجهما أي مجتمع ليتقّدم. فيما تبقى للقومية وللوطنية خصوصية المحافظة على الأصالة وعلى مقومات اللغة وهذه المحافظة لا تلغي بدورها ضرورة الانتفاع والإفادة من كل ما هو جديد ومستورد .

وليس بخاف على أحد أن اللغات تغتني ببعضها وإن اتساع رقعة المعجم اللغوي لأية لغة إنما هو بفعل التأثر والتأثير بين اللغات

ولعله من نافل القول تأكيد أن الفرس قد تأثروا كثيراً بالعربية فالفرس لم يعرفوا الأوزان العروضية والقافية إلّا بعد الفتح الإسلامي كما أن الوقفة الطللية التي كان الشعر العربي يستهل قصائده بها باعتبارها سمة أسلوبية وتقليداً درج الشعراء على استهلال قصائدهم بما لم يكن الفرس يعرفونها لولا التأثر بالشعر العربي .

وليس ببعيد عن ذلك ما أحدثته رباعيات الخيام من أثر في الأدب الأوربي وكان الأثر البيّن لكتاب كليلة ودمنة بنسخته العربية الأثر الأبرز في ترجمته إلى اللغات الأخرى التي بلغت حدود الستين لغة وقد تأثر بها الشاعر الفرنسي لافونتين الذي كتب حكاياته على ألسن الحيوان وفي هذا السياق يمكن القول بأن تأثير كتاب (ألف ليلة وليلة) كان تأثيراً واضحاً وقد انتقل بترجماته عن الأصول اليونانية والفارسية إلى العربية ومن العربية إلى الآداب الأوربية وقد اقتبس عنه عناوين كثيرة لمسرحيات وقصص لكتاب كبار .

كما كان التأثير والتأثر في الأدب الأوربي واسعاً وقد تنوّع بدلالاته وتشعبّت موضوعاته التأثريّة ولعلنا نذكر في هذا المجال قصص الشّطار الإسبانية ذات الطابع الواقعي التي انتقلت بفعل التأثير من محدودية الجغرافية الإسبانية إلى المحيط الأوربي كله

بداية نحب أن نؤكد على أنه من الضروري في دراسة الأدب المقارن أن نجعل التأثر والتأثير أهم محاوره واتجاهاته ، إذ لا يكفي مع اتساع دائرة النشر ووسائل الإعلام والاتصالات الوقوف عند ظاهرة أوجه الاتفاق أو الاختلاف ، إذ أنها غير محددة الأبعاد ، وتبدو غير ذات جدوى إلا في مجال تاريخ الآداب العالمية.

نعود فنقول : إنه من المعروف لنا أن الأفكار حظ يشترك فيها جميع الناس ، و كما يقول الجاحظ فإن : (المعاني مطروحة في الطريق يعرفها البدوي والحضري , (ولكن التعبير الشخصي الذي تصاغ به الأفكار هو الذي يختلف من أديب إلى آخر.

والأسلوب مرتبط باللغة ، وهو لذلك يحتفظ بطابع شخصي لا ينفصل عن روح الأمة التي تعبر

بلغتها عن روحها ، ومع ما يبدو من أصالة الكاتب الشخصية ، فإن أسلوبه يختلف باختلاف تيارات المؤثرات الأجنبية فيه.
وغني عن البيان أن الأسلوب الأدبي أسرع العناصر إلى التنقل أو التناقل ، فالكتاب قسمان : كتاب على بداية الطريق ، وكتاب كبار وضعوا أقدامهم بالفعل على الطريق ، وتمكنوا التمكن التام من أدواتهم الإبداعية والفنية.
فالكتاب المبتدئون في تقليدهم قد يبلغون حد النقل الحرفي أو النسخ من كتابات الكتاب الكبار المعروفون.
أما الكتاب أصحاب الإبداع المتميز فإنهم لا ينساقون إلى تيار التقليد حتى يعودوا إلى أنفسهم ، فيستردون أصالتهم ، وكلما زاد شعور المبدع المتميز بأصالته وتميزه ، كلما طرح جانباً بعض عناصر الأسلوب المقلد ، وبدل في بعضها الآخر من عنديات حتى يتمثله حق تمثيل ، وحتى يهضمه الهضم السليم .
ويمكن لنا القول على الإجمال : إن أسلوب الكتابة يتألف من عناصر ثلاثة : الإبداع الشخصي ، والتقليد القومي ، والمؤثرات الوافدة أو الأجنبية ، التي تبدو قوية أحياناً ، وضعيفة أحياناً أخرى .
وقد يحدث تأثير كاتب بأخر في المواقف التي تتصل بالفكرة والموضوع ، كما قد يحدث التأثير في الأساليب والصور البيانية والخيالية ، ومع هذا التأثر تبدو للكاتب المتميز أصالته ، ويبدو طابعه الخاص الذي يعرف به.
ومن أمثلة التأثر : الرومان أعجبوا بالكاتب المسرحي اليوناني / أرستو فانيس ، وقلدوا مسرحياته.
وهذا هو الناقد والمعلم والخطيب / كانتليانس الروماني ، يمتدح مؤلفاته ، ويؤكد على ضرورة الرجوع إليها ، ويفرض تلاوتها على تلاميذ المدارس ليفيد من نقاء أسلوبها ورشاقته ، ويقفوا على قوة تركيبها ، وتدفق حوارها ، وبخاصة في الأجزاء الخطابية منها.
وهو يعتبر هوميروس وأرستو فانيس نموذجين ممتازين لتعلم الأدب والخطابة ، أما الخطيب / ششرون الروماني فقد اعترف لهذا الشاعر المسرحي مؤسس الملهاة ببراعة النكتة ، وتوقد القريحة ، وطلب من الكتاب الأخذ منه.
كما كان تأثير أرستو فانيس أشد وضوحاً في عصر النهضة الأوربية ، حين اهتم أدباء إيطاليا بنشر أشعاره وترجمتها ، تبعهم في ذلك شعراء فرنسا وكتابها ، الذين ذهب بعضهم إلى تقليد أرستو فانيس في أسلوبه وسخريته اللاذعة ، ومنهم من تقمص روحه ، وحاكى طريقته في النقد الاجتماعي والسياسي ، ومنهجه في التصوير ، ويعتبر (رابنيه) زعيماً لهذا الفريق من الأدباء ، ثم جاء راسين وموليير واقتفيا أثر أرستو فانيس اليوناني في مطالع حياتهما.
كما قلده في انجلترا (بن جونسون) وغيره من شعراء المسرح الإنجليزي ، ولما بدأ القرن التاسع عشر الميلادي ونشطت الحركة الرومانسية ، حاز أرستو فانيس اليوناني إعجاب كثير من الكتاب مثل : برونتج ، و سورنبرن ، فتعددت ترجماته ، وراجت مسرحياته ، وأخرجت في العديد من المسارح الإنجليزية والفرنسية والأمريكية.
ونذكر كذلك : خليل مطران الذي ينسب إليه بعض الباحثين ريادة الشعر الرومانسي العربي ، مطران تأثر بالشعر الفرنسي الرومانسي في مضمونه وبعض صوره ، وفي التزامه بالوحدة العضوية ، وذلك أثناء هروبه من لبنان إلى فرنسا إثر الاضطهاد التركي.

وأيضاً : جماعة الديوان (العقاد و شكري و المازني) تأثروا إلى حد كبير في شعرهم ونقدهم بالرومانسيين الإنجليز.
وشعراء الواقعية الجديدة أو مدرسة الشعر الحر ، تأثرت بأشعار وكتابات ت.س .إليوت ، الإنجليزي الأمريكي ، بالإضافة إلى الشعر الغربي الحديث بوجه عام ، وكذلك الشعر الروسي.
وكتاب القصة القصيرة من العرب ، لا يمكن أن ينكروا أثر الروسيين : جوجول وتشيكوف ، والأمريكي / إدجار ألن بو ، عليهم بشكل أو بأخر.
والكاتب القصصي / محمود تيمور تأثر بشكل كبير بأعمال الفرنسي / موباسان ، ولذلك أطلق عليه (موباسان الشرق. (
ونجيب محفوظ في كتابته لرواية الأجيال تأثر بالكاتب / بلزاك ، وقد صرح بذلك أكثر من مرة.
ويقال : أن الشاعر المهجري / جبران خليل جبران (١٨٨٣ م ـ ١٩٣١ م) ، تعرف على الشاعر / بليك ، وعالمه الشعري ، وقد صرح بذلك في أكثر من موضع ، بل أنه كان يعتز بأن يشبهه الناس ببليك ، ويكفي أن الناقد والأديب / رودين وصف جبران بأنه (بليك القرن العشرين) ، ورغم هذا التأثر فأننا نؤكد على أن جبران رغم حياته التي قضاها في الولايات المتحدة الأمريكية ، ورغم كتاباته العديدة باللغة الإنجليزية ، بما فيها كتابه المثير (النبي) إلا أنه لا يعد شاعراً أمريكياً ، ولم يعده مؤرخو الأدب الأمريكيين كذلك ، وإنما هو شاعر وكاتب عربي لبناني مهاجر إلى أمريكا ، ولكنه حقق شهرة عالمية وصلت إلى حد يفوق شهرة بعض الكتاب العالميين .

نقول : نحن نعرف جيداً أن جبران متأثر بدرجة كبيرة ببليك الإنسان والشاعر والرسام ، وقد وضح نفوذه الكبير على إبداعات جبران الشعرية والنثرية والفنية ، إذن : تعرف جبران على أعمال بليك حقيقة مؤكدة ، أشار لها في خطاباته لصديقة عمره / ماري هاسيكيل التي نشرت سنة ١٩٧٢ م ، والتي كانت محفوظة في جامعة نورث كارولينا ، وفي عدد من مقالاته.
وتشير إلى فكرة النبوءة والأدب عند جبران ، التي ربما تكون قد جاءته من بليك ، حيث نجد أن جبران يجعل الشاعر في مرتبة النبي .
ويقول البعض : إن الدكتور / طه حسين قد سبق واقتبس اسم حيث الأربعاء من اسم مؤلف ضخم للكاتب الفرنسي / سانت بيف هو (حديث الأثنين) ، وكما اقتبس هو هذا العنوان من سانت بيف ، فقد اقتبس منه الكاتب الزنجي الماريتنكي / فرانس فانون اسم (المعذبون في الأرض. (
وردنا على هذا الرأي : إن ذلك حكم لا يسهل الأخذ به قبل أن نتأكد تماماً من أن كتاب طه حسين قد ترجم إلى اللغة الفرنسية ، ونتأكد أن فانون قد اطلع عليه ، هذا فضلاً عن أن اسم كتاب فرانس فانون هو (الملعونون في الأرض !! (
كما يقولون : إنه مما لا شك فيه أن الدكتور / طه حسين تأثر أسلوبياً بالأسلوب الفرنسي بوجه خاص ، وبالأسلوب الغربي بوجه عام ، ويكفي أن نقارن بين أسلوب كتابته في فترة العشرينات من القرن العشرين ، بأسلوب التأليف في عصره ، الذي كان يحتوي على الكثير من المحسنات البديعية ، وصيغ البناء التي بها الكثير من الحشو والتطويل.
وفي رأينا : أن نظرة واحدة على أسلوب الدكتور / طه حسين من خلال سيرته الذاتية (الأيام) نلمح وعلى الفور هذا الأسلوب السلس ، الرائق ، الشائق ، وكذلك التراكيب الشعرية التي تغلف جمله والمستخدمة للمفردات ذات الدلالات الخاصة ، مما يجعلنا نقول : إن طه حسين بأسلوبه

المتفرد ، ليس في حاجة الباتة إلى أن ينقل من أساليب الفرنسيين أو غيرهم من الأوربيين .
ونحن لا نشك في أن طه حسين قد تأثر بكتاب فرنسا ، مثل : ديدرو ، وفولتير ، وروسو ، سانت بيف ، وغيرهم ، ولكن هذا لا يجعله على الإطلاق يصل إلى مرحلة نقل بعض فقرات كاملة ، وأمثال ، وكلمات مأثورة فرنسية طرقها الكتاب الفرنسيون من قبله.
وهنا نحب أن نشير إلى الدراسة القيمة التي قام بها الدكتور / كمال قلته في هذا المضمار حول أثر الأدب الفرنسي على طه حسين.
ويؤكد عدد من الباحثين أن الشاعر المصري/ صلاح عبد الصبور تأثر في أسلوبه ، وفي مضمون أشعاره بكل من : فاريكو جاراسيا لوركا الأسباني ، وبابلو نيرودا الشيلي ، وإيفتوشنكو الروسي ، وولت ويتمان الأمريكي ، وت. س . إليوت الإنجليزي / الأمريكي ، وهو أكثر الشعراء تأثيراً في شعره ، وفي شعر مدرسة الشعر الحر أو الواقعية الجديدة ، وقد أشار عبد الصبور إليه في عدة دراسات ومقالات له.
ويمكن أن نضيف إلى الذين تأثر بهم صلاح عبد الصبور من الشرق ، شاعر تركيا الكبير / ناظم حكمت (١٩٠٢ م ـ ١٩٦٣ م) ، الذي كان له أكبر الأثر في الحياة الأدبية في تركيا ، وأول من تحرر من قيود الشعر العامودي التقليدي ، وأول من تزعم حركة الشعر الجديد في تركيا ، وقد تأثر به كثير من الشعراء العرب في العصر الحديث.
كما قرأ عبد الصبور بودلير الفرنسي ، وبوشكين الروسي ، وبرخت الألماني ، وفي المسرح تأثر بشكسبير ، وبرخت ، وسارتر ، ويوجين أونيل ، وأونسكو ، وإبسن ، ولوركا ، وإليوت ، وميللر ، وجون أوسبورن .. وغيرهم .
ونحن لا ننكر عملية التأثر والتأثير وهذا أمر واقعي ومشروع ، وما ذكرناه من أمثلة تتعلق بالأدب العربي الحديث ، لا تعني بالمرة بعد من ذكرناهم عن الأصالة ، وعن الطابع المميز لكل منهم ، حيث ظلت لهم شخصيتهم العربية الشرقية المتميزة .
ويبدو التأثر واضحاً في شعر (التروبادور) الذين أخذوا صور الأسلوب شكلاً ومضموناً من الشعراء العرب في بلاد الأندلس .
والشاعر الإيطالي / بترارك تأثر بلغة الغزل التروبادورية ، فشاع أسلوبه هذا بين أدباء وكتاب : إيطاليا ، وأسبانيا ، وفرنسا ، وانجلترا ، وألمانيا ، حتى رأينا الشعر الغزلي أو الغنائي أو الدرامي في الفترة الممتدة من القرن السادس عشر الميلادي إلى عصر ظهور الرومانسية الأوربية ، رأيناه يفيض كله بألفاظ النيران ، واللهب ، والحديد ، والقيود ، والسجون ، والشهداء .. الخ ..
وفي مسرحيات الرعاة في الأدب الفرنسي ، وقصصهم ، تأثرت في كثير منها بالتشبيهات والاستعارات بهذا النوع من الأدب الإيطالي فأخذوا يعبرون عن حبهم وعاطفتهم بألفاظ من المرعى والحقل ، وعديد من المفردات المتصلة بحياة الرعاة .
ومن تأثيرات الأدب الفرنسي في الأدب العربي الحديث ، ما نلاحظه في عبارة قالها طه حسين في مناقشته لمصطفى صادق الرافعي ، فقد وصف طه حسين الرافعي بأنه في إخراج مؤلفاته يعاني من آلام الوضع !!
والواقع أن طه حسين كان يعني رمي الرافعي بالتكلف في التأليف ، وهذه العبارة مألوفة في الأدب الفرنسي ، لكنها لا تؤدي المعنى الذي أراده طه حسين.
فقد وصف فولتير نفسه بهذه العبارة ، ولكنه كان يريد أن يعبر عن الجهد الذي يبذله ، ويعانيه

في إحكام أسلوبه وصياغته.
ونحن إذا أقصينا جانباً مسرحيات توفيق الحكيم المتعاملة مع التراث اليوناني القديم ، مثل : أوديب ، وبراكسا ، وبجماليون ، وعكفنا على كتاباته ومسرحياته الأخرى ، لأمكننا الكشف عن آثار الأدب الفرنسي بوضوح ، في موضوعات مسرحه ، وطرائق المعالجة ومناهجها ، ووسائلها ، بل قد يتسرب في بعض الأحيان التأثير على اللغة والأسلوب والحوارات ، وغيرها من عناصر تكوينات البنية الفنية عند الحكيم.
ومن يراجع مسرحية (مصرع كليوباترا) لأحمد شوقي ، يلمح فيها تأثيرات في الصور مستمدة من مصادر فرنسية وإنجليزية ، ويلحظ تأثر شوقي الكبير بمسرحية شكسبير ، وبالتحديد في آخر الفصل الثاني من مسرحية شوقي ، بل إنه ينقل نفس كلام شكسبير في المنظرين السادس والسابع من مسرحيته.
ومنظر الوليمة يشغل معظم الفصل الثاني من مسرحية شوقي ، وهو متأثر بشكسبير فيما يسوده من طابع المرح ، ومن الشراب والرقص ، وللمنظر بالطبع أصل تاريخي يعرفه كل من شكسبير وشوقي اللذان كانا لهما معرفة ودراية بما يدور في القصور الملكية.
وتبادل الأدب العربي والفارسي عملية التأثر والتأثير في مجال الأسلوب ، فحين انتقلت المقامات والرسائل والقصائد الغنائية من العربية إلى الفارسية ، نقلت صور الأسلوب معها إلى درجة التقليد الذي قد يفقد العمل الأدبي أصالته .